دف الشوك

دف الشوك

خرج مع خطيبته من بيت خالها، عبرا الحواري الضيقة. ضمته من كوعه بحنان. ها هو أيلول قد أطفأ الصيف، يبدو أن السماء قد أمطرت قليلاً، ورائحة التراب المجنونة تبعث على القشعريرة، إنها رائحة أيلول.

كلُّ شيء يغري على المشي والتنَزُّه. تسربا إلى شارع اليرموك؛ الدكاكين مغلقة، ولم يتبق في هذا الشارع الطويل العريض إلا بعض المطاعم وباعة الشاورما يتراقصون أمام أسياخ اللحمة الضخمة وقد توقف حولهم عدد من الزبائن يراقبون بصمت، أما باقي الشارع فخالٍ تمامًا من المارة والناس، خال تماما! الأضواء الكثيفة تجعل من هذا الليل نهارا آخر.

لكن أين الناس؟! وماذا يفعلون خلف الجدران في هذا الجو الرائع؟

ضمته من كوعه بقوة، فتوقف.

- خلينا نمشي. قالت
- تأخرنا. قال بلهجة حازمة غيرت موقفه الأول.

لم تجب بحرف، بل إنها انصاعت لأوامره تماما، ولن تخالفه في كلمة يقولها، خاصة وأن سيارة فخمة توقفت للحظات، ثم ابتعدت بسرعة، بدأ الدم يدب في صدره، أخيرا وصلت سيارة تاكسي، فتح الباب، جعلها تصعد أمامه وصعد مباشرة بجانبها متخذا وضعية المسطر الحامي في كل حركاته:

- خدنا عَ جرمانا.

قال للشوفور بسرعة، محاولا أن يهرب من إحساس ما.

مشت السيارة. هناك عدة طرق يمكن أن تصل بين مخيم اليرموك وجرمانا، أخذ يراقب كل شيء يمكن أن يصدر عن الشوفور، مع محاولة السيطرة على نفسه، فمن غير اللائق أن يظهر أمر خوفه وقلقه أمام خطيبته، بذل جهدا مضاعفا في تلطيف الجو وإلقاء النكات، وقد أفلح مرات في أن يجعها تضحك وأن يرتفع حجم صوتها بشعور عارم من الأمان، ولكنها تمادت وتوسدت كتفه مما لفت انتباه الشوفور، هذه الحركة التي تفعلها بمناسبة وبغير مناسبة، وهو بالمقابل لم يمانعها مرة، بل إنه يرتاح لخضوعها له، ويحاول دومًا أن يظل هذا الخضوع موجودا، أما وقد شعر برعب من خطر محتمل، فأن تتوسد كتفه أمر غير مرغوب فيه حتمًا، تجمد كخشبة، انحرف قليلا واعتدل، فهمت، ثم تراجعت وظلت ساكتة.

انحرفت السيارة، تريد أن تأخذ طريق دف الشوك، اعترض مباشرة وصرخ:

- ليش من هون؟

أوقف الشوفور السيارة ونظر إليه مستغربا:

- الطريق التاني عم يشتغلوا فيه البلدية، بتعرف طريق غيرو؟

نفخ نفخة طويلة وتقبل عذره، مد يده إلى خصره وأرجعها خائبة؛ لم يجد السكين. تناول محفظة خطيبته بنَزَق وراح يبحث بداخلها:

- شو بدك؟

لم يجب بكلمة، بل تابع البحث بين موجودات المحفظة الكثيرة حتى وجد مشرط خياطة، تناوله وحضنه بكفه جيدا، فتحه، فأصدر المشرط صوتًا مسموعًا.

مضت السيارة في طريقها، وكانت الأضواء المتناثرة على الطريق المعتم تباغت حبات العرق التي نبتت فجأة وتضيء وجهه اليقظ المترقب بشدة كل شيء، أبانت رؤوس أنامله التي ترغمه الشارب بشده صوب الأسنان لتتولى قضم نهاياته.

أخذت أضواء حي القصب تتراءى لعدنان الذي تحفَّز تماما، فهناك تسكن أم عماد العرصة:

- كل شي مضمون، لا تخاف!

كان قد وعد بليلة رائعة مع بنت حلوة بمائة ليرة فقط:

- ميت ليرة؟ وليش لأ؟

مائة ليرة فقط ويخمد هذه الرغبة الشيطانية التي تجتاحه مثل عاصفة كل ليلة. مائة ليرة ويسكتها. كان ذلك منذ عشر سنين تقريبًا، ولا يكاد يعرف امرأة.

ظل يفكر بالبنت والمائة ليرة حتى حل الليل، وصلا، دخل وراء رفيقه المجرب كالأطرش في الزفة. كانت أم عماد جالسة على الكنباية العريضة محصورة حصرا فيها لأنها سمينة جدا وتلبس الكثير من الذهب، واثنتان من البنات جالستان في الكنباية العريضة وأخريات يدخلن ويخرجن من الأبواب الكثيرة. كان الدفع قبل الدخول طبعًا، وقد خصصت له الأوضة اليسارية:

- وعم تتشرط يا بعد إمك؟

وأخذت تضحك أم عماد العرصة وأخذت البنات تقلدنها وتضحكن لضحكها، نط الدم إلى رأسه، نفخ ثم بلع ريقه، واحتمل السخرية. قالت وهي تخاطب إحداهن، فبلع ريقه وهو يرمق رجلين ضخمين:

- دبريه وزتيه برة ... مرة وحدة ... وحدة وبس تعا لهون

وفتشته جيدًا وانتزعت منه الموس. وقبل أن يعترض أخذته لبنى من يده ودخلت به.

ولم يجر الأمر مثل العادة وقفا هو وهي، كان مذهولاً جدًّا وأخذت تساعده في إزالة ثيابه:

- شو باك؟

صدم بالسؤال وهو لا يزال يفكر بأم عماد.

- شو اسمك؟

لم تجر الأمور كما تجري في العادة، وقفا متجمدين يتبادلان نظرات مكسورة، تقدم منها وقلبه يدق بسرعة، تسللت يده بخجل إلى خدها التفاحي، وارتقت عيناها بجمود وعلقتهما بعينيه، كانت تلبس لباسا شفافًا أربكه، مدَّ يده إلى الخيط المسترسل فوق الكتف الطري، فسقط من تلقاء نفسه ليطل نهد مجرب ذو حلمة بنية، غب منه، فسقطت فوق السرير مطلقة تأوها، وكأنها تدعوه ليرتمي فوقها، وملابسه تفلت منه بأسرع من البرق.

ولقد نام فيما بعد مع نساء كثيرات، ولكن للبنى طعمة خاصة، فهي الأولى والأخيرة على الإطلاق.

تقدمت السيارة باتجاه حي القصب، أخذت تخترق أول البيوت المنثورة، ضم المشرط بقوة أكثر، والعرق يتصبب منه بغزارة، التفت إلى خطيبته ورسم بكثير من الجهد ابتسامة فردت عليها بابتسامة سريعة ورمت بحيرة نظراتها هنا وهناك.

ولم تكد السيارة تصل إلى محاذاة بيت أم عماد، حتى صرخ الشوفور:

- العمى!

صرخ وضرب الدركسيون بيديه بعنف وهو يدقق النظر إلى اللوحة أمامه، ثم أطلقت السيارة صفيرًا مزعجًا, فانحرفت السيارة إلى يمين الطريق وتوقفت من تلقاء نفسها، فانقضَّ عدنان عليه من الخلف وأمسك برقبته ووضع شفرة المشرط على حنجرته مباشرة:

- ليش وقفت ولا؟!
- ولك شو صار لك؟!!
- بدك تمشِّي السيارة غصبًا عنك!

لقد انتهى خزان الوقود، أخذ الشوفور يشتم ويسب الشوفور الذي كان يعمل على السيارة قبله كيف أنه لم يعبئ خزان البانزين، فتراخى عن رقبته لأنه صدَّقه، وكان رجلاً مسكينا أخذ يتعهد بأن يبحث له عن سيارة وعلى نفقته، ولكنه عفا عنه، ثم التفت إلى خطيبته وخاطبها آمرا:

- نزلي!

وقفا على جانب الطريق ولم يستطع نسيم أيلول العليل أن يخفف من حدته وتوتره.

- ارجعي عَ الحيط!

وقف أمام الرصيف وخطيبته خلفه، ينتظر سيارة تقله وخطيبته، كان بيت أم عماد قريبًا جدًّا وهو يكاد يراه، فظلَّ متحفِّزًا يراقب كل حركة وكل صوت وكل همسة.

تمادت لبنى بعنجهية ثديها ولم يستطع عدنان أن يتحكم جيدا، القى القبض أخيرا على ساقيها ورفعهما وأرسل قضيبه في الفرج الذي كان يغلي، فتصاعدت أنات تلتها صرخة أحدثت صمتًا في جدران الأوضة.

سقط جسمه بجانب جسمها وظلا ساكنين.

أخيرًا، توقف وقبلها في عينها، ثم جلسا مستسلمين لعريهما وقد أخذ يكتشف جسمها لأول مرة:

- شو باك؟
- ما بني شي!

لقد قرر ولن يتراجع سوف يأخذها معه.

أخذت تبكي وهي تتوسل إليه وتلبسه ملابسه عنوة بأن يخرج وألا يعود أبدًا، صارت تحذره من القتل، ولكنه رفض وأمرها بالسكوت، فقد قرر ولن يتراجع.

أخذ الطرق على الباب يتعالى، ثم اقتحم أربعة رجال كالدبب الأوضة أشبعوه ضربًا ثم ألقوا به في الشارع.

سلم خطيبته لبيت أهلها سالمة من أي أذى، لم يمسسها سوء ولم يخدشها شيء، تنهد بشدة بعدما تنفس هواء أيلول وهو يتجه إلى بيته.

دخل إلى بيت أهله ألقى السلام على أبيه وأمه الساهرين في أرض الدار واستمر تحت أنظارهما إلى أوضته، كسر الصندوق، بعثر أشياءه، ثم حمل الموس وثبته على خصره الأيمن، والمسدس على خصره الأيسر، لن يستطيع أن يفي بالوعد الذي قطعه لأبيه في أن يتزوج من خطيبته ويترك الموس، بل إنه حلف يمينا بألا يعود إلى البيت وألا يترك الموس والمسدس أبدًا.

انتصف الليل، وحده واقف في نهار الشارع المخادع والأمان الكاذب يتنشق هواء أيلول العليل ويدخن بشراهة، يشير إلى سيارة تاكسي تأتي، يركب وهو يقول للشوفور:

- عَ دف الشوك